الثقافة الأدبية واللغوية

وإذا كانت الثقافة الدينية لازمة للداعية في الدرجة الأولى ، فإن الثقافة الأدبية واللغوية لازمة له كذلك . ولكن الأولى تلزمه لزوم المقاصد والغايات ، والثانية تلزمه لزوم الوسائل والأدوات .

واللغة ـ بمفرداتها ونحوها وصرفها ـ لازمة لسلامة اللسان ، وصحة الأداء ، فضلاً عن حسن أثرها في السامع . بل صحَّة الفَهم أيضًا ، فالأخطاء اللغوية إن لم تحرِّف المعنى وتشوِّه المراد : يمجُّها الطبع ، وينفر منها السمع .

وانظر كم يقشعر جلدك ، ويضطرب قلبك ، ويتأذَّى سمعك ، حين تسمع داعية يقول : التُبْعة وهو يريد : التَّبِعة . ويذكر الأُهُبَّة وهو يريد الأُهْبَة .

وآخر ينصب المرفوع ، ويرفع المنصوب ، ولا يفرِّق بين فاعل ومفعول بـه ، ولا يبالي بإضافة ولا حرف جرٍّ . . فلا يكاد يُنهي سطرًا من الكلام إلا ضلَّك فيه ضلَّة ، أو لطمك ـ ولطم الخليل وسيبويه معك ـ لطمة أي لطمة .

وكثيرًا ما يؤدِّي اللحن إلى إفساد المعنى، وإخراجه إلى ما يناقض الشرع والعقل.

وشرُّ ما يكون ذلك إذا كان اللحن في كتاب الله ، كذلك الإمام الذي صلى أعرابي خلفه ، فسمعه يقرأ : ﴿ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ﴾ (البقرة:٢٢١) (بفتح تاء تنكحوا) . قال : ولا إن آمنوا أيضًا لن ننكحهم! فقيل له : إنه يلحن ، وليس هكذا يُقرأ . فقال أخِّروه ـ قبَّحه الله ـ لا تجعلوه إمامًا . فإنه يُحلُّ ما حرَّم الله .

إن المرء لا يستطيع أن يفهم كتاب الله وسنة رسوله بغير التمكُّن من اللغة وعلومها .

لقد أخبرني بعض طلابي أنهم سمعوا مَن يقول بأن حواء خُلقت أولاً وأن آدم خلق منها بعد . وأن المرأة هي أصل البشرية .

ولـما سألتُ من أيـن جاء بهذا الكلام؟ قالوا : من القرآن من أول سورة النسـاء وما شابهها . وهنا أدركتُ سرَّ الخطأ عند هذا المتحدِّث وهو جهله باللغة ، فقد قرأ قوله تعالى من فاتحة سورة النساء : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ (النساء:١) ، ففهم منها أن كلمة ﴿ زَوْجَهَا ﴾ تعني الرجل وهو آدم في نظره ، ولو كان آدم هو المخلوق أولاً والمرأة هي التي خُلقت منه لقال : (خلق منها زوجتها) . وهذا هو المستعمل عُرفا تقول عن الرجل : زوج ، وعن المرأة زوجة . وغفل هذا الرجل أن القرآن يجب أن تُفسَّر كلماته وفـقًا لمدلولـها اللغـوي لا العُرفي ، لأن العرف دائم التبديل . واللغة التي نزل بها القرآن تسمِّي المرأة زوجًا كالرجل تمامًا . ولهذا قال تعالى في قصة آدم : ﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ (البقرة:٣٥ ، الأعراف:١٩) . ولم يقل (وزوجتك) . وقال في شأن هاروت ومـاروت : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾ (البقرة:١٠٢) ، وإنما أُتي الرجل من جهله باللغة .

والأدب ـ بشعره ونثره ، وأمثاله وحكمه ، ووصاياه وخطبه ـ مهم للداعية ، يثقِّف به لسانه ، ويجوِّد أسلوبه ، ويرهف حسَّه ، ويقفه على أبواب من العبارات الرائقة ، والأساليب الفائقة ، والصور المعبِّرة ، والأمثال السائرة ، والحكم البالغة . ويفتح له نافذة على الروائع والشوامخ ، ويضع يده على مئات بل ألوف من الشواهد البليغة ، التي يستخدمها الداعية في محلِّها ، فتقع من القلوب أحسن موقع وأبلغه .

وقد جاء في الحديث : « إن من البيان سحْرًا ، وإن من الشعر حِكَمًا »[1] وسمع النبي ﷺ الشعر من أكثر من شاعر ، واستجاده واستزاد منه . وكان من أصحابه شعراء معروفون مثل : حسَّان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة من الأنصار .

---

(١) أحمد في المسند (٢٧٦١) ، وقال مخرجوه : صحيح لغيره ، وأبو داود (٥٠١١) ، والترمذي (٢٨٤٥) ، وقال : حسن ، وابن ماجه (٣٧٥٦) ، ثلاثتهم في الأدب . والترمذي وابن ماجه الشطر الثاني منه ، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٣١) ، عن ابن عباس .

وأذن لحسان أن يذود بلسانه وشعره ، ويردَّ عنه هجو شعراء قريش ، وقال له : «اهجهم ورُوح القدُس معك»[1] .

وروى مؤرخو الأدب كثيرًا من الشعر للخلفاء الراشدين ، وخصوصًا لعلي ﷺ ، فقد روي عنه كثير من الشعر الجيد البليغ ، كما روَوا أيضًا لكثير غيرهم .

ومَن لم يقُل الشعر منهم فقد رواه ورَغَّبَ في روايته .

فعن عمر بن الخطاب ﷺ : علِّموا أبناءكم السباحة والرماية وركوب الخيل ، ورووهم ما يجمل من الشعر[2] .

وقالت عائشة ﷺ : رووا أولادكم الشعر تعذُب ألسنتهم[3] .

وقال المقداد بن الأسود : ما كنتُ أعلم أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ أعلم بشعر ولا فريضة ـ علم المواريث ـ من عائشة ﷺ .

وروى عنها ابن أبي مليكة : أنها كانت تنشد قول لبيد :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيتُ في خلف كجلد الأجرب

وتقول : رحم الله لبيدًا . . . فكيف لو أدرك زماننا هذا؟!

ثم قالت : إني لأروي ألف بيت له ، وإنه أقل ما أروي لغيره[4] .

وكان ابن عباس من أروى الناس للشعر ، حتى حكَوا أنه كان يحفظ رائية عمر ابن أبي ربيعة ، وكان يستند إلى الشعر في تفسيره للقرآن ، كما يُعرَف ذلك من محاورته لنافع بن الأزرق[5] .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الصلاة (٤٥٣) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٨٥) ، كما رواه أحمد في المسند (٧٦٤٤) ، وأبو داود في الأدب (٥٠١٣) ، والنسائي في المساجد (٧١٦) ، عن أبي هريرة .

(٢) ذكره في الدر المنثور (٨٦/٤) ، وعزاه للقراب في فضل الرمي ، بنحوه .

(٣) انظر العقد الفريد (٢٧٤/٥ ، ٢٧٥) .

(٤) رواه عبد الرزاق في الجامع (٢٠٤٤٨) ، وابن أبي شيبة في الأدب (٢٦٥٦٣) ، عن عائشة .

(٥) حديث طويل رواه الطبراني (٢٤٨/١٠) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : فيه جويبر وهو متروك (٩/٧) .

وقال الشعبي أحد أئمة التابعين بالكوفة : ما أنا لشيء من العلم أقل مني رواية للشعر ، ولو شئتُ أن أنشد شعراً شهراً ، لا أعيد بيتًا ، لفعلتُ .

ويروى أن زياداً بعث بولده إلى معاوية ، فكاشفه عن فنون من العلم ، فوجده عالمًا بكلِّ ما سأل عنه ، ثم استنشده الشعر ، فقال : لم أرو منه شيئًا . فكتب معاوية إلى زياد : ما منعك أن تروِّيه الشعر؟! فوالله إن كان العاقُّ ليرويه فيبر ، وإن كان البخيل ليرويه فيسخو ، وإن كان الجبان ليرويه فيقاتل .

وهذا يدلُّنا على مقدار ما للأدب عامة ، وللشعر خاصة ، من تأثير في النفس البشرية ، كما يدلُّنا على أن العناية بالأدب ، والتضلُّع منه ، والاطلاع على مصادره والحرص على تقييد أوابده ، وترديد فرائده ، والاستفادة منها عند الحاجة ، أمر لازم للداعية الناجح .

ولا غرو أن جعل الله الآية الكبرى ، والمعجزة العظمى ، لخاتم رسله آية أدبية ، ومعجزة بيانية ، أثَّرت في خصومها وأنصارها على سواء : القرآن الكريم ، وذلك لينبِّهنا على قيمة الأدب ومنزلة البيان .

ولنضرب لذلك مثلاً : هب أنك تتحدَّث عن صلة الرحم ، وبرِّ ذوي القربى ، وذكرتَ ما تيسَّر في الموضوع من الكتاب والسنة ، أفلا يكون مما يوسِّع أفق حديثك ، ويزيده تأثيرا على تأثير ، أن تذكر بعض ما حفلت به كتب الأدب في ذلك من شعر ونثر . . . فمن ذلك قول عليٍّ : أكرِم عشيرتك فإنهم جناحك الذي به تطير ، وأصلك الذي إليه تصير . . . إلخ . ومن ذلك قول طَرَفَة في معلَّقته :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند

وقول الآخر :

أخاك أخاك ، إن مَن لا أخا له ... كساع إلى الهيجا بغير سلاح

وإن ابن عم المرء فاعلم جناحه ... وهل ينهض البازي بغير جناح؟[1]

---

(١) القائل : مسكين الدارمي .

وقول الحماسي :

وإن الــذي بيني وبــين بــنى أبي وبين بني عمــي لمختلـــف جـــدًّا

إذا أكلوا لحمي وفــرتُ لحــومهم وإن هدموا مجدي بنيــتُ لهــم مجــدا

وإن زجروا طيرًا بــنحس تمــرُّ بي زجرتُ لهم طيرًا تمرُّ بـــهم ســعدا

ولا أحمل الحقد القــديم عليهمــو وليس كبير القوم مَن يحمل الحقــدا[1]

وقول الآخر :

قومي همــو قتلــوا أُمــيم أخــي فــإذا رميــتُ يصــيبني ســهمي!

فلــئن عفــوتُ لأعفــونَّ جلــلا ولئن رميتُ لأوهــننْ عظمــي![2]

ومن الجوانب المهمَّة في الثقافة الأدبية : ما تحكيه كتب الأدب من حوار وقصص وأخبار ، كثيراً ما تكون لها قيمة أخلاقية ، أو دلالة تربوية ، فيلتقطها الداعية ذو الحسِّ المرهف ، لينقلها من مجال المتعة بالقراءة إلى مجال الدعوة والتوجيه .

أذكر هنا مثالاً لذلك : ما حكاه ابن عبد ربِّه الأندلسي في كتابه (العقد الفريد) : أن رجلاً يقال له : ابن سُلَكَة ، دخل على الحجاج يشكو إليه ظلمة حلَّت به على أيدي رجاله . فكان مما قاله للحجاج :

عصى عاص من عُرض العشيرة ، فحُلِّق على اسمي[3] ، وهدم منزلي ، وحُرمت عطائي!

يعني الرجل ، أن هذا كلَّه أصابه بذنب واحد من العشيرة! كما يفعل الطغاة إلى يومنا هذا .

قال الحجاج : هيهات ، أما سمعتَ قول الشاعر :

جانيك مَن يجــني عليــك وقــد تعدى الصحاحَ مبــارك الجُــرْب

ولرُبَّ مــأخوذ بــذنب عشــيرة ونجا المقــارفُ صــاحبُ الــذنب

---

(١) القائل : المقنع محمد بن ظفر بن عمير الكندي .

(٢) القائل : الحارث بن وعلة الذهلي .

(٣) يعنى أن اسمه وضع داخل حلقة أو دائرة من المداد كما يفعل أمام المواد التي يرسب فيها التلميذ . وبتعبير العصر : وضع اسمه في القائمة السوداء .

فقال الرجل : أصلح الله الأمير . إني سمعتُ الله عزَّ وجلَّ يقول غير هذا . قال : وما ذاك؟ قال : قال الله تعالى ، أي على لسان إخوة يوسف : ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ ۖ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴾ (يوسف:٧٨ ، ٧٩) . قال الحجاج : عليَّ بيزيد بن أبي مسلم . فمُثل بين يديه ، فقال : افكك لهذا عن اسمه ، واصكك له بعطائه ، وابنِ له منزله ، ومُرْ مناديًا ينادي : صدق الله وكذب الشاعر[1]!

فهذه القصة التي ترويها كتب الأدب تدلُّ بوضوح على أن للشريعة الإسلامية سلطانها وهيبتها على طغاة الحكام . وهذه خصيصة فريدة تتميَّز بها الشريعة الربانية عن الأنظمة والقوانين الوضعية . كما تدلُّنا على أن أطغى الطغاة في العصور الأولى لم يكن ليجرؤ على رفض شريعة الله ، أو تحدِّي نصوصها ، ولو كان هو الحجاج ابن يوسف .

حتى الطرائف والمُلَح الأدبية يجد الداعية الموفَّق لها مكانها ووقتها ، فينتفع بها ، ليثبت بها معنى معيَّنا ، أو ليروِّح بها عن سامعيه . كما قيل : إن القلوب تملُّ كما تملُّ الأبدان ، فابتغوا لها طرائف الحكمة[2] .

ويستطيع الداعية الملهم كذلك ، أن يقتبس كثيرًا من النصوص الأدبية وبخاصة الشعر الرفيع ، فينقلها من موضوعها الأصلي الذي سيقت فيه ، إلى موضوع يراه الداعية أليق لها ، وأحق بها ، وهو كثير .

قال بعضهم : حضرتُ مجلس الشبلي ، فقام إليه رجل من أصحابه ، فقال له : أوصني . فقال : لقد أوصاك الشاعر بقوله :

قالوا :

تـــوقَّ ديـــار الحـــي ، إن لهـــم عينًا عليك إذا مـــا نمـــت لم تـــنم

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه (١/٣٠ ، ٣١) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٣٨٤هـ ١٩٦٥م .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في العقل وفضله (٩٤) ، عن علي .

وكثيراً ما استعار أهل المحبَّة لله أشعار العشَّاق ، من أمثال قيس وجميل وكُثيِّر ، فاستعملوها هم في أغراضهم الربانية ، ولم يلتفتوا إلى أنها قيلت في ليلى أو بثينة أو عزَّة . بل ربما بقيت هذه الأسماء ، فلم يبالوا بها .

وقد أنشأ أبو فِراس الحمداني أبياتًا من قصيدة يخاطب بها أميره وابن عمِّه سيف الدولة ، فنقلها الصالحون إلى مَن لا يجوز أن يُخاطب بها غيره ، وهو الله جلَّ جلاله ، وهي قوله :

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب
إذا صحَّ منك الود فالكل هين ... وكل الذي فوق التراب تراب[1]

ورأيتُ من الناس مَن ينسبها إلى رابعة العدوية ، والحقيقة أنها لم تُنشَأ إلا بعد رابعة العدوية بزمن طويل .

* * *

(١) هذا البيت الأخير ليس لأبي فراس ، ولكنه للمتنبي في قصيدته في مدح سيف الدولة .